استعمال الفطير والخمير

(للاب انطون صالحاني اليسوعيّ)

نُشرت مؤخرًا في هذه البلاد مقالة عن الخمير والفطير ضمّنها كاتبها آراء غير سديدة فرغب الينا كثيرٌ من قرائنا الكرام ان نبيّن لهم الصحيح من الفاسد والغث من السمين فلبّينا الى دعائهم وعمدنا الى وضع نبذة وجيزة في هذا المعنى قصدنا فيها اثارة العقول رفع حجاب الالتباس عن وجه الحقيقة

ويُقتضَى علينا بدء بادئ ان نميّز الزمن الذي سبق انفصال اليونان عن الكنيسة الغربية (١ والزمن الذي ولِيَهُ ففي العشرة القرون الاولى من النصرانية لم يكد آباء الكنيسة وعلماؤها ومؤرخوها يذكرون الخمير او الفطير الّا على سبيل العرَض وبوجه يُستدلّ منه انهم لم يكونوا يلتفتون على هذه القضية كبير اهمّية . فلم تكن عُرفت اذ ذاك ولا وُجدت مسألة الفطير والخمير . وهذا العلّامة فوتيوس قد ضرب صفحًا عن مسألة الفطير ولم يصوّب سهام الملامة الى الكنيسة اللاتينية على استعمالها له . ففي سكوته دليل على انهُ لم يكن يعتبر المسألة كما اعتبرها بعض خلفائه بعده وانه سوّغ تقديس الخمير والفطير بالسواء . فلمّا تمّ الانفصال نشأت هذه المسألة ثمّ تفاقمت واستفحل امرها فاضحت شغلًا شاغلًا وموضوع مجادلات عنيفة حتى ان بطريرك القسطنطينية ارميا علّم وصرّح بان الخبز اذا لم يكن خميرًا لا يتحوّل الى جسد الرب (٢

امّا اللاتين وان استعملوا الفطير وفضّلوه (٣ فقد علّموا وما زالوا يعلمون مع السواد

---

١) تسمية الكنيسة غربية او شرقية لم يكن لها من اثر في القرون الاولى للنصرانية . انما احدثها انقسام المملكة الرومانية الى قسمين هما مملكة الغرب ومملكة الشرق وكان ذلك بعد وفاة ثيودوسيوس الكبير سنة ٣٩٥ ثم انتشرت هذه التسمية وتأصّلت في الكنيسة نفسها بعد ان حدث ما حدث من الاختلافات الدينية والنفور بين كنيسة القسطنطينية والكرسي الرسولي في القرن الحادي عشر

٢) راجع الفصل العاشر من تأديبات الكنيسة الشرقية ولكن ليس الجميع يقولون بهذا التعليم . فانّ كثيرًا من اليونان مع ادعائهم بان استعمال الخمير هو اقرب لعادة الكنائس الاولى لا ينكرون كون الفطير يصلح كالخمير لتتميم سرّ الافخارستية

٣) وكذلك يصنع اللوتيرانيون فانهم في عشائهم السرّي يستعملون عادةً الفطير . الّا انهُ يجوز

الاعظم من الشرقيين ان الفطير والخمير هما مادة صحيحة للافخارستية على حدّ سواء، لان كليهما خبز حقيقي (١ وكان استعمالهما جائزاً في القرون الاولى للنصرانية جريًا على احوال كلّ بلدٍ وما ألِفَهُ الأهلون في العوائد كما يتّضح ذلك مما سنورده

امّا بعد الانفصال فلمّا حمي الخصام بين الفريقين ورُشق اللاتين بسهام الملامة على استعمال الفطير (٢ سنّ الاحبار الرومانيون شريعة ألزموا بها ان يقدّس او يتقرّب كلٌّ بحسب طقسه (٣ الّا في بعض ظروف بيّنوها بالتفصيل (٤. وانمّا وضعوا تلك الشريعة تلافيًا

عندهم استعمال الخبز فطيرًا كان او خميرًا . وهذا هو ايضًا تعليم تيودور البيزي. امّا في جنيف فانّهم فضّلوا الخمير سنين عديدة الى أن جرت بينهم مباحثات ومخاصمات ادّت بهم الى إعادة الفطير. واكثر الكلوبنيين في ايامنا يعوّلون على الخبز العمومي الاعتيادي اي المختمر

١) زعم البعض ان اللفظة اليونانية ἄρτος التي عبّر بها الانجيليون عن الخبز لا تطلق الّا على المختمر منهُ. لكن هذا الزعم مردود من عدّة اوجه اخصّها: (١ ان الكتاب الكريم يطلق ايضًا هذه اللفظة على الفطير. ففي سفر الاحبار (٢٣: ٤ و ٥) يذكر ان التقدمة تكون فطيرًا وينعتهُ بخبوز ἄζυμους ἄρτους ويشير اليهِ القديس متى فيسمّيه خبزًا على الاطلاق ἄρτους τοὺς ἄζυμους τῆς προθέσεως « خبز التقدمة » (متّى ١٢: ٤). ومعلوم ان خبز التقدمة كان كلهُ فطيرًا كما يشهد بذلك سفر الاحبار (٢٤: ٥): « جميع التقادم التي تقربونها للرب لا تعمل بخمير ». (٢ لمّا اتكأ المسيح مع التلاميذ في عمواس (لوقا ٢٤: ٣٠) يخبر الانجيلي انهُ « اخذ خبزًا وبارك وكسر وناولهما » ويعبر عن هذا الخبز باللفظة اليونانية ἄρτος . وليس من احد ينكر ان هذا الخبز كان فطيرًا لانّها كانت ايام الفصح عند اليهود . (٣ كل الشعوب قديمة كانت او حديثة اعتبرت الفطير خبزًا حقيقيًا كالخمير واطلقت عليهِ لفظة خبز. وعرب البادية الذين لا يقتاتون في الغالب الّا بالفطير يسمونهُ بلا خلاف خبزًا . ويقال عن لوط لمّا اتاه الملاكان انهُ « صنع لهما مأدبةً فخبز فطيرًا واكلا » (تكوين ١٩: ٣)

٢) انفذ سنة ١٠٥٣ ميخائيل كرولاريوس بطريرك القسطنطينية ولاون رئيس اساقفة اكريدة في مقدونية رسالةً الى يوحنا اسقف تراني وطليا اليهِ ان يبلغها الى البابا لاون التاسع والى جميع كنائس الغرب . واقوى شكوى تضمّنتها هذه الرسالة هي عادة اللاتين ان يقدّسوا الفطير في الذبيحة الالهية . ثم ان كرولاريوس دون ان ينتظر الجواب عمد الى كنائس وادبرة اللاتين في القسطنطينية فاقفلها لانّها لم تخضع لمطالبهِ في تبديل الفطير بالخمير

٣) ان الكنيسة اللاتينية تعظم بهذا المقدار الطقوس الشرقية حتّى ان البابا يناول الشمامسة اللاتين دون اليونان عند ما يقدم الذبيحة الالهية في بعض الاحتفالات الحبرية ويخدمهُ فيها فضلًا عن جمهور الكرادلة اكليروس من الطقس اليوناني يقرأون الانجيل بلغتهم . وذلك رغبةً في المحافظة على الطقوس

٤) سمح البابا لاون التاسع للكاهن اللاتيني ان يقدس الخمير اذا وجد في الشرق بين ظهرانَيْ

للخصومات وبيانًا لاعتقاد الكنيسة، مصرّحين بذلك ان كلتا العادتين محمودة وكلتا المادّتين مقبولة تصلح لتقديم سرّ الافخارستية

هلمَّ الآن نبحث عن استعمال الكنائس الغربية للفطير وعن بدئهِ واسبابهِ. فنقول انَّ الكنيسة الرومانية تقدس الفطير اقتداء بما عمل السيد المسيح وجريًا على عادةٍ قديمة ترتقي الى عهد الرسل

انَّهُ لأمرٌ مقرر ان المسيح لم يستعمل في رسم الافخاريستية الّا الفطير لانهُ رسّهُ عندما اكل الفصح مع تلاميذهِ وكان محتومًا الّا يوجد اذ ذاك في البيوت سوى الفطير. وقد ورد في سفر الخروج (١٢ : ٢٠): « لا تاكلوا شيئاً من المختمر بل في جميع مساكنكم تاكلون فطيراً ». وفيهِ ايضاً: « سبعة ايّام تاكلون فطيرًا. في اليوم الاوّل تخلون منازلكم من الخمير . . . في الشهر الاوّل في اليوم الرابع عشر منهُ بالعشيّ كلوا فطيراً الى اليوم الحادي والعشرين من الشهر بالعشيّ. سبعة ايّام لا يوجد خمير في بيوتكم فان كلّ من اكل خميراً تنقرض تلك النفس من جماعة اسرائيل » (خروج ١٢ : ١٥ و ١٨ و ١٩). وجاء في محلٍ آخر (احبار ٢٣ : ٥ و ٦) (١ . « في الشهر الاوّل في الرابع عشر منهُ بين العرويّن فصح للربّ. وفي اليوم الخامس عشر من هذا الشهر عيد الفطير للربّ سبعة ايّام تاكلون فطيراً

ولا ريب ان المسيح اكل الفصح في اليوم الاول من الفطير كما تامر الشريعة. وتتّضح ذلك من آيات الانجيل الطاهر في قول (متى ٢٦ : ١٧): « وفي اول يوم من الفطير دنى

قوم يقدسون الخمير ولم يكن هنالك كنيسة يُستعمل فيها الفطير. وكذلك سمح للكاهن ذي طقس الخمير ان يقدس الفطير اذا وجد في الغرب ولم توجد كنيسة يُقدَّس فيها الخمير (مجموعة رسائله ك ١ ف ٢٩). وفي هذه السنوات الاخيرة سنَّ قداسة البابا لاون الثالث عشر شريعة تأذن بمباشرة الطقس في ما يختص بالمناولة في بعض الظروف وقد بيّنا هذه الظروف بالتفصيل مرارًا في جريدتنا البشير. وهذه الشريعة هي بعض استثناف لعوائد كانت تجري الكنيسة بمقتضاها قديمًا

١) معنى الفصح الاجتياز والعبور اشارةً الى ما صنعهُ الرب لما اجتاز بيوت الاسرائيليين في ارض مصر ولم يصب ابكارهم بأذًى: « اذا قال لكم بنوكم ما هذه العبادة لكم فقولوا هي ذبيحة فصح للرب الذي عبر عن بيوت بني اسرائيل بمصر اذ ضرب المصريين وخلّص بيوتنا » (خروج ١٢ : ٢٦ و ٢٧). واما عيد الفطير فقد رُسم تذكارًا لما حدث للاسرائيليين عند خروجهم من مصر على ما اخبر بهِ الكتاب المقدس اذ قال: « حمل الشعب عجينهم قبل ان يختمر . . . فاختبزوا العجين الذي خرجوا بهِ من مصر ملبّلا فطيرًا اذ لم يكن قد اختمر لانّهم طُردوا من مصر ولم يقدروا ان يتلبثوا حتّى انهم لم يصنعوا لهم زادًا » (خروج ١٢ : ٣٤ و ٣٩)

التلاميذ الى يسوع قائلين اين تريد ان نعدّ لك الفصح لتأكل » وقال مرقس (١٤ : ١٢) بافرز ايضاح : « في اوّل يوم من الفطير اذ كانوا يذبحون الفصح قال لهُ التلاميذ اين تريد ان نمضي ونعدّ لتأكل الفصح » . ومثلهُ لوقا (٢٢ : ٧ , ٨) : « وبلغ يوم الفطير الذي كان ينبغي ان يُذبح فيهِ الفصح فارسل بطرس ويوحنا قائلًا امضيا فاعدّا لنا الفصح لنأكل » وكفى بهذه الآيات برهانًا لدحض آراء من زعموا انَّ المسيح لعلمهِ بدنوّ موتهِ سبق فعجّل اكل الفصح . فانّ الانجيل يذكر انَّ اليوم الذي اكل فيهِ المسيح الفصح كان اوّل يوم من سبعة ايّام الفطير وانَّ اليهود كانوا يذبحون فيهِ الفصح . ولا يشير الى قصد خصوصي للمسيح بل الى العادة العمومية والشريعة المحتوم على الجميع تتميمها . ثمَّ ان التلاميذ الذين لم يكونوا ليعلموا او يفهموا امر موت سيدهم هم الذين استلفتوا انظاره الى حفظ الوصية واكل الفصح وفقًا للشريعة . ولا يراء انهم طلبوا اليهِ اتباعها وتتميمها في اليوم المعين في الناموس (مرقس ١٤ : ١٢)

ثمَّ ان المسيح كان ذكّر الرسل بدنوّ العيد اذ قال لهم : « تعلمون انَّهُ بعد يومين يكون الفصح وابن البشر يسلَّم للصلب » (متى ٢٦ : ٢) « وكان الفصح والفطير بعد يومين » (مرقس ١٤ : ١) . وقرب عيد الفطير المسمى الفصح » (لوقا ٢٢ : ١) . وهذا دليل آخر على ان المخلص كان عزم على اكل الفصح في وقتهِ

ويجدر باللاحظة ما اوردهُ الانجيليون فقالوا : « ولما كان المساء اتكأ مع تلاميذه (متى ٢٦ : ٢٠ ومرقس ١٤ : ١٧) وزاد لوقا ايضاحًا فقال : « ولما كانت الساعة اتكأ هو والرسل » (لوقا ٢٢ : ١٤) وفي تعيين الانجيليّين لليوم وساعة المساء اشارة بيّنة الى ما امر بهِ الله في سفر الخروج (١٢ : ١٨) : « في الرابع عشر منهُ بالعشي كلوا فطيرًا » وقال ايضًا (خروج ١٢ : ٥ — ١٠) : « حملٌ صحيح . . . ويكون عندكم محفوظًا الى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر فيذبحهُ كل جمهور جماعة اسرائيل بين العشرين . . . ويأكلون لحمهُ في تلك الليلة شواء نارٍ بفطير . . . ولا تبقوا شيئًا منهُ الى الغداة » . وفي سفر الاحبار (٢٣ : ٥) : « في الرابع عشر منهُ بين العشرين فصح للرب » . فمن اسلوب الكلام الذي ذكر بهِ الانجيليون اكل المسيح للفصح يُستنتج برهان قاطع على ان المخلص اكلهُ في اليوم المأمور بهِ والساعة المعينة في الشريعة . لانَّهُ كان يحافظ كلَّ المحافظة على القيام بهذه السُّنَّة . ولو افترض انهُ لم يجر بحسب الوصية على النوع والوقت اللذين رتبهما الله لما كان

اعداء المسيح سكتوا في جملة الشكاوي التي احتجّوا بها عليه زورًا عن هذه المخالفة الصريحة

ولا حاجة الى القول بان كثيرًا من الآباء القديسين علّموا بان المسيح تمم الفصح الشرعي كما كان واجبًا . فيكفي ايراد شهادة اثنين منهم . فهذا يوحنا الذهبي الفم (في المير ٨٤ وفي بعض النسخ ٨٥ العدد ٢ في تفسير انجيل متى) يقول : « ان المسيح لم يتعدَّ وصيّة وقت الفصح(١ » . وقال القديس ابيفانيوس « ان المسيح انفرد في الجبل بعد ان اكل الفصح ... وقد تمم فصح اليهود مع تلاميذه ولم يغيّر شيئًا فيه بل تممهُ بالتدقيق كاليهود لانهُ لم يأتِ لينقض الشريعة بل ليكملها (٢ » . وقال فوتيوس في الفصل ١١٦ من مكتبته الشهيرة . « ان المسيح تمّم الفصح الشرعي (٣ » . وعليهِ فيكون السيد قد استعمل الفطير كما تأمر الشريعة

هذه هي اخصُّ البراهين التي تثبت ان المسيح اكل الفصح في اليوم المعين في الشريعة وانهُ اكله مع الفطير كما يُؤمر فيها . فبكل صواب اذًا نستنتج انَّ السيّد لهُ المجد قدّس الفطير لانهُ لم يكن بين يديهِ اذ ذاك الّا هذا الخبز

ولكن اذا طالعنا ما كتبهُ يوحنا في انجيلهِ في معرض كلامهِ عن الفصح وعن آلام المسيح تقوم امامنا صعوبات ليست يسيرة وتعترضنا مشاكل عسرة نبسطها كما هي ونلحقها بما نراه احقّ او اقرب الى الصواب

امّا الآيات التي وردت في انجيل يوحنا ويظهر منها ان المسيح لم ياكل الفصح مع جمهور اليهود فهي هذه : « قبل عيد الفصح لما كان يسوع يعلم ان ساعته قد اتت ... وحين كان العشاء ... » (١٣ : ١ و ٢) . وقولهُ : « ولم يدخلوا الى دار الولاية لئلاَّ يتنجسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح » (١٨ : ٢٨) . وقولهُ ايضًا : « وكانت تهيئة الفصح وكان نحو الساعة السادسة » (١٩ : ١٤) . وفي الفصل ذاتهِ : « اذ كان يوم التهيئة فلئلَّا تبقى الاجساد على الصليب في السبت لان يوم ذلك السبت كان عظيمًا » (١٩ : ٣١) الى ان قال : « فوضعا يسوع هناك لاجل تهيئة اليهود » (١٩ : ٤٢) . فيظهر من هذه الآيات كلها ان عيد الفصح وقع تلك السنة يوم السبت لا يوم الجمعة وعليهِ كان واجبًا اكل الحمل الفصحي مساء الجمعة

---

١) « ου γαρ αν ο Χριστος παρεβη τον καιρον του πασχα »

٢) في كتاب المرطقات المرطقة ٥١ العدد ٢٧

٣) « ο Χριστος το νομικον επετελει πασχα »

لا مساء الخميس . والحال انّ المسيح اكل الفصح مساء الخميس ولم تكن ايام الفطير قد ابتدأت . فليس اذًا برهان قطعيّ ان المسيح قدّس الفطير

فلحلّ هذا المشكل نقول انّ لليهود في حساب الايام طريقتين حساب طبيعيّ وحساب شرعيّ . فالطبيعيّ يتبع اليوم الطبيعيّ من نصف الليل الى نصفه . والشرعيّ او العبدي حدّه من الغروب الى الغروب . فالانجيليّون متّى ومرقس ولوقا اذ يتكلمون عن اول يوم من الفطير يراعون اليوم الشرعيّ الذي وقوعهُ يوم الجمعة ١٥ نيسان وبدؤهُ مساء الخميس ١٤ نيسان . وعليهِ فكان بدء الفصح مساء الخميس وفيهِ اكلوا الفطير . امّا القديس يوحنا الذي كتب انجيلهُ لاجل اليونان خاصّةً (١ فانهُ يراعي في حساب الأيام عادة اليونان والرومانيين الذين كانوا يبدأون اليوم من نصف الليل . فبقولهِ « قبل عيد الفصح » يعني ليلة العيد . فكانهُ قال : مساء الخميس قبل يوم الجمعة الذي كان فيهِ عيد فصح اليهود . ويؤيد هذا التفسير ما ذكرهُ يوحنا في الموضع نفسهِ . فانهُ اردف كلامه « قبل عيد الفصح » بهذه الآية : « لحين كان العشاء » يريد العشاء المعهود والمشهور . فعبارة يوحنا ترادف قولنا : مساء الخميس الواقع قبل عيد الفصح وقت العشاء الفصحي اتكأ يسوع مع تلاميذهِ ليأكل معهم الفصح . ومن هنا يتّضح ان القديس يوحنا بقوله « قبل عيد الفصح » لا ينفي وقوع عيد الفصح في يوم الجمعة ١٥ نيسان

ولكن ما الجواب على الاعتراض المبني على قول يوحنا انّ يوم موت المسيح كان « يوم التهيئة » و « تهيئة الفصح » وان اليهود « لم يدخلوا دار الولاية لئلّا يتنجّسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح » . فهذه الآيات تدلُّ صريحًا على ان اليهود ضحى نهار الجمعة لم يكونوا بعد قد اكلوا الفصح وانهم كانوا يتهيأون ليأكلوه مساء ذلك النهار

(ستأتي التتمة في العدد الآتي)

١) كتب يوحنا هذه الامور بعد ان مضى عليها ما يقف على ستين سنة . وفي انجيلهِ ما يدلّ على انهُ يكتب لأمم لم يألفوا عوائد اليهود . ولذلك كثيرًا ما تراه يفسّر لهم احوال العبرانيين وينقل الفاظ لغتهم الى اليونانية ويصف الامكنة الوارد ذكرها الى غير ذلك من الادلّة التي تبين مراعاتهُ لامور الامم الذين يبشرهم